١ - ضبط لتسمية البلاد وسكانها:

إن لإفريقيا الشمالية، المشتملة علي المغرب الأقصى والجزائر وتونس، وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس، ووحدة جنسية لكونها آهلة بالبربر ولكن ليس لها تسمية مضبوطة.

فقد أطلق اليونان اسم ليبيا علي القسم الشمالي من إفريقيا الآهل بالبيض، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الاحابشن السود. وقيل أن يكون للفظة "إفريقية " (Africaنفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا استعملتها رومة للدلالة علي المقاطعة الموافقة لشمال شرقي البلاد التونسية. ثم أصبحت كلمتا إفريقيا وليبيا فيما بعد تعنيان القارة كلها.

وسمى العرب النازحون من الشرق كل البلاد الكائنة غربي مصر جزيرة المغرب وبصفة أدق سموا أقصى غربي المغربFar Westالمغرب الأقصى.

وعرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة الدول البربرية أو بلاد البربرية. وفي القرن التاسع عشر وضع الجغرافيون عبارة إفريقيا الصغرى ليدلوا علي وجود قارة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة وعبارة بلاد الأطلس لتأكيد أهمية تشكل الصخورTectoniqueوكثيرا ما تجري على الألسن لفظة إفريقيا الشمالية الفرنسية وذلك من الوجهة السياسية.

وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة شمال إفريقي، وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين إفريقيا الشمالية والشمال الإفريقي.

وأفضل تسمية هي: بلاد البربر إذ أن سكانها يكاد يكون جميعهم من البربر دون سواهم، وإن وجد بربر خارج حدودها.

ولم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم، بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمجBarbariومنه استعمال العرب كلمة برابر وبرابرة) مفرد بربري (.

وأطلق اليونان علي جميع أهالي إفريقيا الشمالية أو الليبيين اسم قوم كانوا يعيشون

(بين خليج سيرتاSyrte (والنيل هم اللوبيون)Les Lebouواستعمل القرطاجيون) والعبرانيون نفس التسمية. وكذلك الرومان فقد عمموا اسم " الموريون " على جميع سكان بلاد البربر وكان الأول خاصا بسكان شمال المغرب الأقصى.

واليوم لا يعرف عامة الناس أن المغرب الأقصى والجزائر وتونس آهلة بالبربر، ويعمدون إلى تسميتهم عرب. أما الأهالي فكثيرا ما كانوا يسمون أنفسهم أمازيغ)مؤنثه تمازيغت وجمعه أمازيغن(، ومعناه " الرجال الأحرار"، ثم " النبلاء ". وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني.

امشكل الجنس: -

١ - البربر:

مهما رجعنا إلى أوائل تاريخ إفريقيا الشمالية لاحظنا أن الأمور تجري كما لو أنه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتع باستقلالها. فلقد بقيت دائما خاضعة لمدنيات واردة من الخارج وفي بعض الأحيان اقترن مصير هذه المدنيات. فكان يجب أن نجد مبدئيا شعبا متعدد المقومات متغير الثمرات. ولكن الحقيقة غير ذلك. فسلطان الطبيعة هنا عظيم. والعبارة العربية "جزيرة المغرب" ليست من قبيل الاستعارة فحسب، بل هي تمثل هذا الميل إلى الدوام الذي تختص به الجزر. فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران. زد على ذلك الجبال التي نمت في بلاد المغرب هذا الميل إلى المحافظة.

ومدلول المدينة البربرية عندنا هي هذه المجموعة من التقاليد والعادات والأخلاق والنظم التي وجدت خالصة أو مشوبة في كل العصور بقطع النظر عن صروف التاريخ. فهي مظاهر قارة لعقلية ثبتت أمام مشاكل سياسية أو دينية، و هي بعبارة أخرى محصول بحث سوسيولوجي لم يكتمل من سوء الحظ، وستصبح عن قريب مواصلته مستحيلة

فهذا الحد السوسيولوجي للبربري، مهما أعوزه الوضوح والدقة، هو الحد المرضي الوحيد، وهو وحده الذي يعبر عن الخصائص المشتركة للسكان الموجودين في شمال القارة الإفريقية من طرابلس إلى المحيط الأطلسي. ورغم اختلاف طرق العيش اختلافا واضحا جدا في الحاضر والماضي فإننا نلمس في كل هذه القطعة من أوروبا المشدودة إلى إفريقيا العناصر الطريفة لوحدة بشرية عظيمة.

ولا شك أن هذه الوحدة قد ظهرت قديما في ميدان اللغة، وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في بلاد البربر كلها، بل في أغلب الظن باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسماة اصطلاحيا الليبية فرعا من فروع أسرة حام، و هي مصدر اللهجات البربرية الحالية. غير أن هذه المجموعة التي هددتها لغات مدنيات أخرى تصدعت وتفرقت كتلا مختلفة. فالعربية غزت سكان المدن والسهول ويذهب "وليام مارسي" إلى أن نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم ٢٣ بالمائة في ليبيا، وواحد بالمائة في تونس، و ٢٧ بالمائة في مقاطعة قسنطينة، و ٣٤ بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران. وقد تجاوزت هذه النسبة ٤٠ بالمائة في المغرب الأقصى. لكن الأمر لا يعدو الفروق اللغوية. فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد -كما فعله البعض في كثير من الأحيان- في أن التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلا بين جنس عربي وجنس بربري. إن الأمر لا يدل إلا على أن اللهجات البربرية استقرت في جهات جبلية أصعب منالا على الغزاة بينما استسلمت في جهات أخرى إلى لغة أكثر مسايرة للضرورات الاجتماعية.

٢ _ شبكة من الأجناس

ينبغي ألا نستخلص من هذه الوحدة المتأصلة للحضارة البربرية أو من المعطيات اللغوية التي نبهنا إليها سابقا وجود أساس جنسي يفسرها.

ولا شك أنه منذ أوائل عصور التاريخ استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديد الاختلاف. وإذا نحن استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامة بالسكان الأصيلين أو المندمجين، مثل الأوروبيين الذين استقروا منذ ما يقرب من قرن، أو اليهود الذين أتوا

في دفعات متتابعة منذ العصور القديمة، فإننا نلاحظ استيطان الساميين)الفينيقيين والعرب(والهنديين الأوربيين)اللاطين والوندال واليونان (والأتراك والزنوج. غير أن هذه العناصر المختلفة، وإن هي امتزجت بالسكان المستقرين، فقد أتت في عدد ضئيل جدا بحيث تعذر عليها تغيير المقومات الجنسية بإفريقيا الشمالية. فالوندال كانوا ثمانين ألفا وكذلك العرب المستوطنون فعددهم لم يكن كبيرا جدا. فالجيوش المرسلة من ١٥٠ رجل تقريبا. الشرق إلى إفريقيا في القرنين: السابع والثامن بلغ مجموعها ٠٠٠ وكما قال "وليام مارسي": يجب أن نعتبر الخسائر في الأرواح بساحات القتال مدة الغزو الطويلة والثورات البربرية. غير أنه من الواجب أن نزيد على هذه المجموعة النساء والأطفال والموظفين والتجار والمبشرين الذين كلفوا بنشر تعاليم الإسلام بين البربر، ومجموع هؤلاء جميعا لا يتجاوز مائتي ألف أو ثلاثمائة من الدخلاء على أكثر تقدير. أما فيما يخص العناصر الأخرى المستوطنة فليس لدينا أرقام ولو تقريبية. ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت كبيرة العدد، وفي الجملة لا نرى أن واحدا منها أمكن أن يكون له مفعول قوي فيما يخص واقع البلاد الجنسي، خاصة إذا نحن لم ننس أن المستوطنين كانوا يتعاقبون في الزمان، وينتشرون في المكان.

فهذه الملاحظات تدعونا إلى التفكير في أن السكان الذين يعمرون بلاد البربر اليوم -مع اعتبار بعض عمليات التوليد- هم أنفسهم الذين كانوا يعمرونها في أوائل عصور التاريخ، ولكن يكفي أن نقارن بين الميزابيين ذوي الرؤوس البيضية والقامات القصيرة واللون الأسمر والوجوه المفلطحة وبين سكان جبال القبائل ذوى الرؤوس المستطيلة والقامات القصيرة والنظرة الصافية والشعر الأشقر أو الأصهب غالبا - لندرك إلى حد اليقين أن البربر لا يكونون جنسا منسجما من حيث الانتروبولوجية. ولا شك أنه حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف عناصر السكان انبثقت منه النماذج الجسدية الحالية، وأنه من السابق لأوانه -وأبحاثنا الانتروبولوجية في إفريقيا الشمالية على الحالة التي عليها الآن- أن ندعى توضيح خفايا الامتزاجات الواقعة في العصر النيوليتي وما قبله توضيحا كاملا. غير أن أبحاثا حديثة تسمح لنا بالاعتقاد

أن البربري يستمد أصوله من عنصرين أساسيين: إنسان مشتي العربي وإنسان ما (قبل المتوسطيpréméditerranéenومهما يكن الأمر فإن ملاحظات أغلبها قديمة .) ومستمدة من البربر الحاليين تبين تنوعهم الانتروبولوجي.

تصنيف برتولون3)Bertholon(وشانتر)Chantre(

١ ملاحظة في قيس الأوادم انتهيا سنة ١٩١٣ إلى بعد أن قام برتولون وشانتر ب ٥٣٢ تقسيم سكان بلاد البربر الشرقية إلى ثلاثة أصناف:

صنف ١: وهو قصير القامة مستطيل الرأس، متوسط الأنف، اسود الشعر، بشرته (فيها صدأة وصبغها أحمر يضرب إلى السمرة وهو صنف الأسEllezضبطه كولينيون) (.Collignon)

صنف ٢: وهو قصير القامة بيضي الرأس، دقيق الأنف طويله، أسود الشعر في عينيه دكنه، وفي بشرته صدأة صبغها ضارب إلى الصفرة. وهو صنف جربة ضبطه كولينيون.

صنف ٣: وهو طويل القامة، مستطيل الرأس، دقيق الأنف طويله، له، إذا كان أصيلا، شعر أشقر وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء وردية اللون. ولكن هذا الصنف قد داخله التوليد وتفرع عنه نوعان آخران.

صنف ٣ - أ -: له خصائص صنف ٣ ولكنه بيضي الرأس.

صنف ٣ – ب-: مولد من أصل زنجى، أنفه منتشر وبشرته أكثر دكنة، وهو صنف الواحات. ضبطه كولينيون.

والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة القصيرة له صلات بالجنس المتوسطي، والصنف ذو الرأس البيضي له علاقة بأصناف آسيا الصغرى الشبيهة به)أكراد(، وخاصة فرنسا)دردونيا(. والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة الطويلة له صلات بالجنس الأوربي المعبر عنه بالشمالي.

(" و فضل الدكتور " لوبلانLeblancعلى البحث الذي أجراه "برتولون" و"شانتر" ، حول مجموع السكان، القيام ببحث مسبق منتظم للصنف أو الأصناف الغالبة التي يعتمد عليها علم قيس الأوادم. ولا يرى مانعا من الانتفاع بالدراسة التي تعتمد على

التشريح الخارجي، والتي لم يهتم بها من سبقه.

وهو يطعن في قائمة الأسماء التي ضبطاها، ويطعن في تعديدهما لأصناف شتى لا تعطى أي تدقيق فيما يخص إمكانية وجود البربري: فصنف ١ هو توليد من أصل زنجي قديم وصنف ٢ يضم الميزابيين الذين ينكر عليهم نسبتهم إلى البربر وصنف - ٣ أ- نتيجة توليد يرتكز ولا شك على الصنف العربي وصنف - ٣ ب- مولد من أصل زنجي.